دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: علم النفس وأولويات التربية الأسرية
المصدر: مستقبليات
الناشر: مركز مطبوعات اليونسكو
المؤلف الرئيسي: بتروفسكي، أرثور ف.
المجلد/العدد: مج13, ع1
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1983
الصفحات: 17 - 27
رقم MD: 9437
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EduSearch
مواضيع: التربية الأخلاقية، التربية، الأسرة، علم النفس التربوي، علم نفس الطفل، الأهداف التربوية، القسوة، الوصاية، التعايش السلمي، المشاركة، التفاعل الإجتماعي، علم النفس الإجتماعي، السلوك التربوي، التعليم، اعداد المعلمين، الاتحاد السوفيتي
رابط: http://search.mandumah.com/Record/9437

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

علم النفس
واولويات
التربية الاسرية

آرثور بتروفسكي*

التربية الأسرية هي نمط من أنماط التربية الأساسية التي تقوم بها مؤسسات التعليم (روضة أطفال، مدرسة نهارية، مدارس داخلية...)، وهي أقل تلك الأنماط خضوعًا للقواعد والنظم. ذلك أن كل أسرة تربي ابناءها على النحو الذي ترتضيه، تبعًا لما ترنجيه لهم من مستقبل ومصير (الاستراتيجية التربوية) ووفقًا لما تعتقد أنه الطريقة المثلى في التنشئة (الخطة او النهج التربوي). ولا نوجسنّ خيفة من استعمال هذه المصطلحات العسكرية فنحن لسنا بصدد معركة تُشنّ ضد أحد، بل بصدد معركة تُشنَّ من أجله. إنها لمعركة تُخاض لصالح الطفل، من أجل أن يترعرع ويتقدّم، ويكتسب النباهة والشجاعة وحب العدل والتحلّي بالأمانة. والتربية الأساسية في الاتحاد السوفياتي لا تحيد عن هذه القاعدة. ولكن، رغبة في إبراز معالمها الخاصة، يجدر بنا أن نحدّد النهج الأمثل في العلاقات الأُسرية، من وجهة نظر التربية السوفياتية وعلم النفس الخاص بالطفل. وينبئنا التحليل السيكولوجي بأن هناك أنماطًا أساسية أربعة لهذه العلاقات الأُسرية، وبالتالي فان هناك أربع خطط لتربية الأطفال.

الخطط الاربع في التربية الاسرية

النمط الأول هو نمط **السطوة القاسية**، وهو شكل من أشكال الاستبداد يجعل الأعضاء الراشدين في الأسرة يخنقون عند الآخرين الاستقلالية والمبادرة والحس بالكرامة الذاتية. لا جدال في أن من حق الآباء بل من واجبهم كذلك أن يطلبوا إلى أبنائهم أداء بعض الأمور آخذين في الاعتبار الأهداف التربوية والمعايير الأخلاقية والظروف الراهنة التي تستلزم اتخاذ قرارات لها ما يبرّرها من الناحيتين التربوية والأخلاقية. ولكن بقدر ما يكون النظام الذي يفرضه الراشدون صارمًا، بقدر ما يجب أن تواكبه روح من الثقة والاحترام تجاه الطفل.

---

* **آرثور بتروفسكي** Arthur Petrovsky (الاتحاد السوفياتي) – عضو اكاديمية العلوم التربوية؛ عضو لجنة اليونسكو الدولية لتطوير التربية (١٩٧١ – ١٩٧٢)، أكاديمي – أمين سر (١٩٦٨ – ١٩٧٦) ثم نائب رئيس أكاديمية العلوم التربوية (١٩٧٦ – ١٩٧٩). أستاذ أصيل في جامعة لومونوسوف Lomonossov. صاحب مؤلفات عدة حول علم النفس الخاص بالطفل؛ شارك في تأليف كتاب «تعلّم لتكون».

ان الصيغة التي أطلقها أ. س. ماكرنكو (A.S. Makarenko) والقائلة «بأن من ينادي بالنظام المطلق يجب أن ينادي كذلك بالثقة والاحترام المطلقين» انما تقدّم خيارًا مقنعًا للطريقة الدكتاتورية في إقامة العلاقات الأسرية.

إن الآباء الذين يفضلون الأخذ باسلوب الأمر والإرغام على ما عداه من أساليب سيصطدمون، دون ريب، بمقاومة الولد لهم وبانتفاضته ضد هذا الموقف القاسي باللجوء إلى الخبث والمكر والكذب والوقاحة وأحيانًا الحقد الظاهر. وحتى لو استطاع الآباء تحطيم هذه المقاومة عند الطفل، فانهم يحطمون في الوقت عينه، ويخنقون فيه العديد من المزايا والخصال الثمينة: كاحترام الذات والشعور بالكرامة، وروح المبادرة، والثقة بالنفس وبقدراته الشخصية. ان التحكّم الذي لا يلين وتجاهل مصالح الولد وآرائه وإنكار حقه في الإعراب عن وجهة نظره فيما يعنيه من شؤون كل ذلك يجعل الآباء يسيرون بخطى حثيثة نحو فشل أكيد مفجع بالنسبة الى تكوين شخصيته.

أما النمط الثاني في إقامة العلاقات الأسرية فهو **أسلوب الوصاية**. ويمكن القول ان الاستبداد في التعامل والوصاية هما من طينة واحدة في الأساس، وما اختلافهما إلاّ من ناحية الشكل لا الجوهر. فالأول يعني، دون ريب، القهر والنظام القسري، والفرض لإرادة عاتية، بينما الوصاية تعني العناية والحرص على تذليل الصعاب والاهتمام العطوف، ولكن النتائج، في غالبيتها، تبقى هي ذاتها في الأسلوبين معًا. ذلك أن الأولاد تعوزهم الاستقلالية وروح المبادرة، وهم مبعدون في كلا الحالين عن تقديم الحلول للمشكلات التي تعنيهم شخصيًا، فكم بالحري بالنسبة إلى حلول المشكلات المشتركة التي تتعلّق بالأسرة؟ ثم ان الاندفاع العفوي بل الفطري الذي يظهر عند الطفل منذ نعومة أظفاره، ويحفزه إلى الاقبال على «إنجاز الأشياء لوحده» يحلّ محله هنا الشعور باللامبالاة تصحبه البلادة والتكاسل: «ليقمْ والداي بهذد العمل، ليقررْ أبواي في هذا الشأن، ليساعداني».

أما التكوين الفعّال لشخصية الولد فيأتي في المنزلة الثانية من الاهتمام، كما أن جوهر العملية التربوية يتحوّل ناحية هدف آخر ألا وهو تلبية حاجات الولد وتذليل الصعوبات التي تعترضه. والوصاية، كنهج تربوي، تُعتبر العدو اللدود لإعداد الطفل للحياة المفعمة بالنشاط لأنها تتوخى، قبل كل شيء، تجنيب الولد بذل الجهود وتحمّل المسؤوليات التي يقتضيها العمل، فإضاعته بالإغداق من الحماية عليه هي، بالنتيجة، أيسر من تأمين سعادته.

وتحضرني هنا قصة ظريفة ناعمة رواها أحد الكتّاب المعاصرين وجعل مسرح أحداثها يضم الأشخاص التقليديين الآتين: أبًا وابنته وزوجته الثانية وابنتها. وبالطبع فإن الخالة زوجة الأب ستجهد في هلاك ابنة زوجها المقيتة، كما ستجهد في تأمين السعادة لابنتها الحبيبة. وتجري الأحداث كما تبتغي دونما مقاومة من قبل الأب المتيّم بحب الزوجة الماكرة. غير أن القصة تحيد عن السياقة المألوفة إذ أن الخالة زوجة الأب حاذقة ماهرة جاءت تدلّل في تصرفها على معرفة باهرة بعلم النفس الاجتماعي في العلاقات الأسرية. ذلك انها جهدت في ألا تكون ابنتها هي المدلّلة تتمطّى على سرير من ريش بل أن تكون ابنة زوجها، كما جعلت المآكل الشهية والشراب اللذيذ من نصيب ابنة الزوج التي أُلِفت تعنيف ابنة خالتها. أما هذه الأخيرة فقد تعوّدت على

العمل طوال النهار ، إنْ في الغابات والحقول ، أم في المنزل . هذه الخطة الماكرة أتت أكلها في النهاية ، إذ يحضر فتى الأحلام فيقع في حب ابنتها المتواضعة النشيطة الذكية ويسخر من ابنة زوجها البلهاء الخمولة الشرهة .

إن الآباء الذين يجنّبون أولادهم ، على الدوام ، مجابهة الصعوبات المادية ويحرصون على ألاّ يتعرّض الولد – لا سمح الله – لقساوة واقع الحياة اليومية ، ويخشون عليه من هبّة هواء باردة تلفحه في مخدعه العائلي الدفيء ، انما يُحلّون أنفسهم محلّ الولد في كل ما يُفترض ان يقوم به هذا الأخير ولا أحد سواه ، ويكونون ، بالتالي ، قد تخلّوا عن مهمتهم في إعداد الولد للتصدي لواقع الحياة الذي ينتظره عند عتبة البيت العائلي .

أما النهج الثالث فيتمثّل في **التعايش السلمي** الذي ينطلق من مبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين . هنا يبدو كل شيء منظّمًا ، إذ يستقلّ كل واحد بتصريف أموره ومشكلاته وما يلقاه من صعوبات او ينعم به من نجاح . فالآباء يعملون والأبناء يدرسون ، وكل له ميدانه ودائرة نشاطه ولا يتخطى أحد حدوده المرسومة لئلاّ يثير بذلك بعض المصاعب . ويبدو ، في الظاهر ، أن هذا النمط في العلاقات الأسرية حريّ بالقبول والتأييد . فالتفريق بين عالم الولد وعالم الراشدين كثيرًا ما يُعتبر مبدأً تربويًا مؤكّدًا فهو ينادي بضرورة ترك الطفل يترعرع في جو من الاستقلالية والحكم الذاتي ، والحرية التي لا تقيدها العوائق . ولكن ما موقف علم التربية السوفياتي في هذا الشأن؟ انه موقف سلبي رافض ! ذلك ان العائلة لا تُعتبر هنا مركز اجتذاب او قطب عاطفة تشع منه أو بيتًا حقيقيًا يأوي الولد إليه . بل ان حياة الآباء في أفراحهم وأتراحهم على السواء هي حكر خاص بهم ليس للولد ان يطأ براحها . ولكن لا بد ، إن عاجلاً ام آجلاً ، أن تمر في حياتهم برهة حرجة (كأن تقع مصيبة أو يحدث مرض أو تطرأ صعوبة ما) فيُطلَب ، عندها ، إلى الولد أن يبدي تعاطفه وان يشارك في المشكلات العائلية المشتركة وان يعرب عن حسن عواطفه ، وحينئذ يتضح أن الولد غير قادر على ذلك ويتحسر الآباء لهذا الضمور العاطفي يتبدّى عند الابن الشاب (أو الابنة الشابة) دون أن يدركوا أن هذا القصور العاطفي جاء نتيجة فشل النظام القائم في العلاقات الأسرية .

نأتي أخيرًا إلى تفحّص النهج الرابع في التربية العائلية ، وهو النهج الأمثل في نظر علم التربية وعلم النفس السوفياتيين ، ونعني به **أسلوب المشاركة** . فالولد عندما يكون في موقع المشاركة يتغلّب على نزعة التفكير بذاته من دون الآخرين ، ويكتسب المزايا اللازمة لأي كائن حي من أجل العيش مع الجماعة . على أن ذلك يفترض بالأسرة ان تتحلّى ببعض الصفات الخاصة ، وأن تغدو فريقًا من نوع معين بحيث تستحيل إلى فريق جماعي تشدّ بين أفراده روابط تستمد من مضمون نشاطهم ، لأن العلاقات الاجتماعية بين أعضاء هذه الجماعة لا يكون لها مغزاها إلاّ تبعًا للأهداف والقيم الأخلاقية التي يهتدون بها في مسيرة نشاطهم . والتماسك بين أعضاء جماعة ما رهن بمدى التطابق الذي يقوم في وجهات نظرهم بالنسبة الى تقويمهم لنشاط هذه الجماعة خلال بعض الآونات الأساسية التي يمر بها هذا النشاط .

والسؤال الآن : ما الأسرة كفريق جماعي ، وكيف يمكن بل ويتعيّن تنظيم المشاركة فيها؟

المشاركة داخل نطاق الاسرة

هل يمكن التحدّث مثلاً عن مشاركة تقوم بين رجل وامرأة يتراوح سنهما بين ٣٣ و٣٦ عامًا وبين ابنتهما الصغيرة في سن الثانية عشرة؟ من الواضح ان المشاركة لا تنهض إلاّ على أساس المساواة. ولكن يبدو لي ان لا تناقض هنا. ولن أقتصر في هذا المجال على تعداد أمثلة لمشاركة الأولاد المثمرة في الأشغال المنزلية (أعمال بيتية في حدود طاقاتهم – القيام بشراء الحاجيات – غسل الأطباق – الاعتناء بالأصغر من الاخوان والأخوات... الخ). ففي ذلك مظهر مهم من مظاهر النشاط المشترك لا يمكن إغفاله. والتطبيق العملي للتربية الأسرية في الاتحاد السوفياتي يفترض حدوث ذلك كله، غير أن تفحّص مسألة المشاركة بين الأجيال يرتدي كذلك بعدًا آخر هو بعد سيكولوجي صرف. والمجتمع الانساني يتطلّب الكثير من كل عضو من أعضائه أكان راشدًا أم صغيرًا، وهذه المتطلبات تتجسّد في شكل ضوابط إنتاجية، وقواعد سلوكية، ومعايير أخلاقية والتزامات يتعيّن على المرء ان يضطلع بها الخ... وتتوقّف قيمة الانسان الاجتماعية (بمعزل عن سنه) على مقدار مراعاته لهذه المعايير والقواعد والضوابط ومدى تمرّسه بأعباء مسؤولياته. وهذا يظهر بعدًا آخر من أبعاد المشاركة بين الآباء والأولاد ندعوه بمظهر «التقمّص العاطفي النشط»، ونعني المشاركة الحقيقية في أعمال الآخرين والمعاونة الفعّالة والحنو والتعاطف. وهذا اللون من المشاركة يوطّد الروابط بين الأجيال داخل الأسرة ويحول دون قيام اللامبالاة وتحجّر العاطفة والأنانية.

إن الاعراب عن التعاطف حيال المصائب والصعوبات التي تُلمّ بالآخرين بالسعي الى التدخل الفوري إنما يشكل ظاهرة لهذا التقمّص العاطفي، وينم عن طبع مهيّأ للمشاركة والمعاضدة. ويفترض حسن التناسق في العلاقات الأسرية قيام التبادل بين أفرادها لدلائل التعاطف هذه. والآباء الذين يقدمون لأولادهم المساندة والمشاركة (عن طريق مساعدتهم في دروسهم والعمل على ترسيخ كفاءاتهم المهنية ولياقاتهم البدنية... الخ) انما يدلّلون، بصورة عامة، على تحلّيهم بهذه المزيّة؛ ولكن، هل مثل هذه المزية يتوفّر دومًا عند من كان موضع حبهم وحنوهم؟

إن حياة الراشدين تطفح بالأوضاع المعقدة التي تكون تارة صعبة عسيرة وحسب، وتكون تارة أخرى درامية مفجعة. فإذا ما حرصنا على جعل الولد قريبًا إلى والديه (ونلاحظ هنا أن ما نرمي إليه هو تقريب الأولاد من آبائهم لا العكس، لأن التحدّث عن تقريب الآباء من أولادهم هو من نافل القول)، فإن أولى القواعد التي ينبغي مراعاتها من منظور التربية العائلية هي ألاّ نبعد الولد عن أتراح الراشدين وأفراحهم، بل أن نجعله شاهدًا عليها، وأن نشركه فيها بشكل مباشر.

أنت تعلم أن زوجي مقبل على إجراء عملية، وهي عملية خطيرة، وتعرف حالة قلبه... فما الذي تنصحني به؟ هل أخبر ألكسي بالأمر أم أكتمه عنه؟ إن زوجي يقول بألاّ أفعل. لقد قال لي أخبريه بأني سافرت بمهمة لأن من الأفضل ألاّ نجعله يقلق، فهو ما يزال صغير السن. فما الذي أفعله يا ترى؟ وتنتظر الزوجة وعيناها قلقتان تستقرئ العالِم التربوي رأيه الذي تعوّل عليه كثيرًا.

نعم يجب بكل تأكيد أن تخبريه، ولكن عليك أن تتخيّري الكلمات اللازمة لذلك بحيث لا

تبعثين الرعب في قلب الولد. وينبغي ألاّ تعطي صورة سوداء قاتمة عن حالته بل أن تفردي في حديثك إليه مكانًا للأمل في أن كل شيء سيتم على ما يرام، ولكن حذار أن يبقى على جهل بالأمر. نعم سيصيبه بالطبع القلق؟ ومن المحتمل أن يبكي؟ ما همّ؟ انه عضو من أعضاء الأسرة وهو، بهذه الصفة، يتمتع بسائر الحقوق والواجبات التي يتمتّع بها الآخرون. والواجب يقضي بأن نترك الأمور تسير معًا جنبًا الى جنب، الفرح والحزن والبسمة والدموع. إن الآلام والآمال والأحلام التي نعيشها بصورة مشتركة هي التي تقرّب بين لبنات العائلة وتدعّم أساساتها. هكذا يولد «التقمّص العاطفي» الفعّال الذي بدونه لا نتصوّر قيام تعاون مثمر بين الأجيال. إن أسرة تتألف من ثلاثة أو أربعة أشخاص تجمع فيما بينهم روابط القربى يمكن أن تؤلّف فريقًا جماعيًا متراصًّا أو لا تؤلّف تبعًا لنوع العلاقات التي تنشأ بين هؤلاء الأشخاص.

الاسرة كفريق جماعي: خصائصها العامة

لنطرح قبل كل شيء السؤال التالي: هل نستطيع تعيين ضرب من ضروب النشاط يكون مقبولاً على الصعيد الاجتماعي وقابلاً للتنفيذ من قبل جميع أفراد الأسرة بحيث يكون الوسيط الجامع في العلاقات داخل الأسرة؟ إذا كان بمقدورنا اكتشاف مثل هذا اللون من النشاط وتطبيقه في أسرة معينة، يمكننا إذّاك معرفة الشروط التي لا مندوحة عن توفّرها كي تغدو الأسرة، بالفعل، فريقًا جماعيًا. ونشير على الفور، إلى أن هذه العملية هي أعسر في تحقيقها عندما نكون بصدد أُسرة، من تحقيقها عندما نكون بصدد فريق جماعي للانتاج او فريق جماعي عسكري او رياضي وما الى ذلك، حيث يكون النشاط المشترك مفروضًا بشكل رسمي ومحددًا في خطط وأنظمة ونماذج معينة الخ... أما في الأسرة فلكلٍ اهتمامه الخاص، إذ أن الوالد والوالدة يعملان بينما الأولاد ينصرفون إلى دروسهم والجدّة تعنى بشؤون المنزل.

على أن لفظة العسير هنا لا تعني المستحيل، إن الأسرة هي خلية تؤدي **وظيفة اجتماعية هامة: ألا وهي تأمين تربية الجيل الناشئ وسعادة الفرد**، وهذا يفترض ويرتب مسؤوليات معنوية متبادلة وتعاونًا مجديًا. ان تأمين سعادة كل عضو من أعضاء الأسرة وإعداد المواطن الصالح هي بالذات المهمات التي تحدّد معنى النشاط المشترك بين أفراد العائلة، نشاط تتعدى أهدافه نطاق العلاقات الأسرية ويكون له مرمى اجتماعي وقيمة اجتماعية.

وإذا ما كانت هناك أسرة تستجيب في خصائصها لمثل هذا الوصف، حُق لعالِم النفس الاجتماعي ان يفترض عندئذ أن هذه الأسرة تستوفي جميع الشروط الضرورية لتأليف فريق جماعي من مستوى متطوّر رفيع. ويمكننا الذهاب الى أن أسرة من هذا النوع لا بدّ وان تتجلّى فيها الظاهرات الاجتماعية – النفسية التي طالما أبرزتها الدراسة السيكولوجية لفريق جماعي. لنأخذ، مثلاً، الظاهرة الاجتماعية النفسية التي تعتبر الأساس في تعريف العلاقات التي تشدّ بين الأفراد داخل فريق جماعي، ونقصد التماسك في اللحمة التي تحاكي الوحدة القائمة بين جميع أفراد العائلة

والناجمة عن استمساكهم بنظام واحد من القيم ؛ هذا يعني أن المشورات ووجهات النظر والمواقف والآراء التي تصدر عن أفراد الأسرة حول ما يعنيها من مسائل خطيرة تنزع الى أن تأتي متطابقة الى حد بعيد ؛ وفي هذا يكمن جوهر التماسك الذي هو ، في الوقت نفسه ، الشرط الضروري لنجاح تربية الأولاد داخل الأسرة ، أو قل لتوسّل التربية طريقًا الى تحقيق إحدى أخطر المهام الموكولة الى الأسرة .

وليس بالأمر الخطير إنْ تباينت الآراء بين أعضاء الأسرة الواحدة حول قيمة بعض الكتب او الأفلام (التي يجوز أن تروق للبعض من دون الآخرين) ، وحول كفاءات فريق لكرة القدم (حتى ولو كان الوالد مؤيّدًا لفريق والابن مؤيّدًا لفريق آخر) ، وحول تسريحة الإبنة أو شكل الثوب الجديد... الخ ، إذ لا ضرر في ذلك . ولكن الخطورة تبرز ، على العكس ، عندما لا يتفقون على تنظيم أوقات الفراغ ، وعلى قيمة المال ، وعلى من ينبغي تجنّب معاشرته أو الإقبال عليها ، الخ . ويبقى من غير المقبول ، كليًا ، أن يظلوا على تناقض في أحكامهم حيال سلوك الأولاد في ظل هذا الوضع التربوي أو ذاك ، لأن الولد أشبه بآلة حساسة جدًا تتفاعل مع أي تضارب في الآراء يصدر عن الراشدين .

إن عدم الرضى الذي تكاد ملامحه تبدو على محيّا الأم أمام قساوة تصدر عن الأب ، ومنظر الجدة تزمّ شفاهها وتغلق باب الغرفة بعنف وهي خارجة ، فضلاً عن منظر المشاجرات الحقيقية التي تحصل في حضور الولد بسبب سلوكه ، كل ذلك يستغله العضو الصغير في الأسرة في سبيل ترسيخ تأثيره على الأعضاء الراشدين . فالولد دون أن يكون على علم بالمثل السياسي السائر « فرّقْ تَسُدْ » يعمد الى تطبيقه ببراعة في علاقاته مع الراشدين وينفذ إلى قصده من خلال أدق شرخ يمكن أن يصيب هيكل التماسك العائلي .

إن التناسق في المطالب التي تُفرض على الولد ، والإجماع في إصدار الأحكام حول سلوكه ، وبوجه عام ، اعتماد نظام موحّد للقيم ، كل ذلك يشكّل المبادئ التربوية الأهم بالنسبة الى التربية داخل الأسرة السوفياتية ، وتلك هي الخصائص الأساسية للأسرة باعتبارها فريقًا جماعيًا .

ولكن ما العمل إنْ استوجب تصرف الولد أو جنوحه السلوكي ردة فعل فورية دون أن يكون قد أتيح الوقت أمام الآباء للتوافق على اتخاذ موقف موحد؟ من المحتمل ان يكون على أحد الراشدين عندها تحمّل مسؤولية اتخاذ قرار فوري ثم يمكن ، بعدها ، للآباء على انفراد تفحّص هذا الموقف التربوي ومناقشته . ولو أن من تدخل ارتكب خطأ في تقديره وحكمه ، فإن ذلك لن يكون بالأمر الخطير بل إن الكسب من ورائه سيكون ، على المدى الطويل ، بيّنًا وأكيدًا ، طالما أن الولد جاء يصطدم بموقف العائلة الصلب ونفوذها الجماعي ، وهذا هو الأساس .

ومن أهم خصائص العلاقات الجماعية عامة ، والأسروية خاصة ، التمسّك بمبدأ العدل والانصاف في إسناد مسؤولية النجاح إلى من أحرزه والفشل الى من أصابه ، بالنسبة إلى النشاط المشترك . والأسرة التي تعوّدت عزو مسؤولية النشاط المشترك إلى من قام به بصورة عادلة هي الفريق الجماعي الحقيقي ؛ فلا وجود ، في مثل هذه الأسرة ، لفرد يقول في حالة النجاح المشترك : « دعك من التبجح فالفضل كله يعود إليّ » ، أو يقول في حالة الفشل : « أنت الذي أفسدت كل شيء ولا دخل لي على الاطلاق في ذلك » .

إن الإسناد الصحيح لمسؤولية عمل ما ليس هو دليل عافية وجو نفسي سليم يعم الأسرة وحسب ، بل هو كذلك شرط أساسي لقيام الانسجام والتوافق بين أعضاء الجماعة الأسروية . أما العجز عن تقويم إسهام كل فرد في المهمة المشتركة وعن تقديره حق قدره فيفضي ، لا محالة ، إلى نشوب الخلافات وإلى تفتيت الأسرة . وينطبق هذا القول على كل أعضاء الأسرة ، صغيرها وكبيرها على السواء .

الاسرة كفريق جماعي : ملامح فارقة

من الممكن أن نجد في الأُسرة كل العلامات المميّزة للفريق الجماعي والتي خلص إليها البحث النفسي – الاجتماعي فحدّدها بالنسبة إلى فريق الإنتاج ، والفريق العسكري ، او الرياضي او المدرسي وما إلى ذلك . ونلاحظ بالنتيجة ان القونين النفسية – الاجتماعية عينها التي تطالعنا هناك تطالعنا كذلك بالنسبة إلى الأسرة ، ولا جدال في ذلك . إلاّ أن علينا ألاّ نتخذ من وجه الشبه هذا ، على جلائه ، ومن وجوه التناظر الجزئي الأكيد فيما بينها برهانًا على انهما متماثلان إلى حد الوحدة المطلقة . ولا مراء في أن الأسرة تتميز ، كفريق جماعي ، بنوعية ذاتية خاصة .

ونذكر ، قبل كل شيء ، ان الأسرة كفريق جماعي ، تحظى بتوزيع دقيق للأدوار هو أشد تحديدًا مما نشهده في أي فريق جماعي صغير آخر .

ونقصد بالدور ، وفقًا للتعريف النفسي – الاجتماعي ، نمطًا من التصرف المعياري ينتظر أداؤه من قبل كل شخص يتولى وظيفة معيّنة . بمعنى آخر ، فاننا ننتظر من كل فرد (أكان الوالد أم الوالدة ، ام الجدة والجد ، أم الابن والبنت ، أم الأخ والأخت أم الحفيد) القيام بتصرف يأتي متوافقًا ونموذجًا معيّنًا (« ان يلعب دوره » كأم او كابن مثلاً) . أما الطريقة التي يؤدي فيها هذا الدور فتخضع إلزاميًا لحكم اجتماعي وكل من يحيد عن هذا النموذج فهو مُدان مذموم .

من الواجب أن يكون الآباء عطوفين ، وديعين وحليمين متسامحين حيال أخطاء اولادهم ؛ تلك مزايا تأتلف ودورهم ، والمجتمع يقرّها ويعتبرها حريّة بكل تشجيع ؛ بيد أن إسراف الآباء في ذلك ، وإنْ ضؤل ، و « الاستفاضة » في العاطفة الأبوية والتساهل المفرط ، كل ذلك يظل موضع ملاحظة عجيبة ممن هم حولهم وموضع إدانة صارمة .

« لقد أفسدته أمّه بدلالها فهو عما قريب ، سيتصرف على هواه معها ومع كل الناس » . إن حكم الإدانة هذا قطعي لا رجعة فيه ؛ ومن المحتمل ان يكون جائرًا ، غير انه يعيّن بوضوح « حدًا أعلى » للمزايا النوعية بالنسبة إلى دور حنان الأم .

وينبغي أن يكون الآباء صارمين ومتشدّدين حيال ابنائهم ، فالصرامة بدورها جزء من المزايا المطلوبة عند الآباء بمقتضى الدور الذي يقومون به . ولكن الرأي العام يرسم ، هنا كذلك ، حدًا معينًا لهذه المزايا النوعية . غير أن هذا الحد يكون ، والحالة هذه ، « حدًا أدنى » يسمح به . « انه لا يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة في حضور أمه ، لقد سحقته تمامًا » ؛ فالإدانة ، هنا أيضًا ، بيّنة واضحة .

هناك اذن حدود معينة ينبغي للأم ان تراعيها وألاّ تتخطاها عند قيامها «بلعب دور الأم» حتى يعتبر دورها مقبولاً اجتماعيًا. وينطبق هذا القول على سائر أعضاء الأسرة الراشدين. أما بالنسبة الى الولد فان لائحة المزايا التي يتصف بها دوره تشمل الطاعة واحترام الكبار والاجتهاد الكامل في التحصيل والنظافة والمواظبة... الخ، وهي كلّها مزايا معروفة لا تحتاج الى تعليق. ان كل من يحيطون بالولد (داخل أسرته وخارجها على السواء) ينبؤونه (أكان الولد دون سن الدراسة أم كان فتًى يافعًا) وبشكل علني لا بشكل مستتر، ومن خلف ظهره، إن كان تصرفه قد جاء مؤتلفًا ودوره الحقيقي ام لا. ويبدو من العسير ان نجد فريقًا جماعيًا آخر – أرسميًا كان أم غير رسمي (وتستعمل هنا أحيانًا لفظتا «المُنظَّم» و«الطوعي») تُحدَّد فيه الأدوار بشكل صارم، ويُعنى جميع من فيه بإتقان لعب أدوارهم الى هذا الحد. ويستمد هذا الواقع تفسيره بالطبع من جذور وأسباب تاريخية: ذلك أن مهمة تأهيل الجيل الناشئ اجتماعيًا قامت، عبر الأجيال، على كاهل الأسرة قبل أية مؤسسة اجتماعية أخرى.

على ان من الخطأ ان نساوي في نظرتنا الى الفرد «كلاعب دور» ونظرتنا إليه «كشخص». فهي ليست واحدة متماثلة ذلك أن التقيّد بالمتطلبات الاجتماعية ضمن أي فريق جماعي كان، وبالحريّ داخل الأسرة، يظل، في كلتا الحالتين، الصفة المميزة التي لا غنى عن توفرها، غير أن هذه الأخيرة لا تكفي للدلالة على خصائص الشخصية. فلفظة «الدور» تعني تصرّف الفرد وفق نموذج أقره المجتمع فجاء يحتذيه؛ أما «الشخصية» فتفترض اتخاذ الفرد، في قرارته، لموقف معيّن لا تجاه من سيستجيب نداءه وحسب بل تجاه «الدور» نفسه الذي سيقوم بادائه استجابة لهذا النداء. فالشخصية مفهوم أوسع وأغنى في مضمونه من مفهوم الدور الوظيفي، وتتكشّف ملامحها وصفاتها، على تعدّدها، داخل الفريق الجماعي.

وتجدر الملاحظة، قبل كل شيء، أن أداء الأدوار يمكن أن يتم بصورة شكلية صرف. وليس من النادر أن تكون شخصية الفرد الحقيقية متعارضة والدور الذي يضطلع به. فبقدر ما يتدنى مستوى الأسرة، بصفتها فريقًا جماعيًا، بقدر ما يستحكم التعارض والخلاف بين الدور وبين شخصية أفراد تلك الأسرة. مثال ذلك والد يقوم بدوره الاجتماعي كأب إلاّ انه سكّير فاقد للحس الخلقي كشخص، هنا يتكشف التعارض المحكي عنه والذي لا يبشر بالخير إنْ بالنسبة إلى رغد أسرته أم بالنسبة الى تربية اولاده. فالدور يفرض الاحترام، أما الشخصية فلا تستحق غير الاحتقار والازدراء.

ويفترض بالأسرة، كفريق جماعي، أن يقوم فيها توافق نسبي بين دور الآباء وبين شخصيتهم، كما يفترض، في كل حال، انعدام التناقض الحاد بين الاثنين. ويجدر بنا التشديد على لفظة «النسبي»، فالواقع ان التطلبات المتصلة بالأدوار تميل إلى تقنين العلاقات بين الأفراد وتوحيد أنماطها. فمن الواجب أن تعصى الشخصية على التقنين فلا تدعه يشوهها ويفتتها، وإلاّ غدا الفرد أشبه بدمية يحرّك المجتمع خيوطها.

ان العلاقات والروابط التي توحّد بين أعضاء الأسرة فتجعلهم كلاًّ متراصًا هي من النوع العاطفي (ولا أتردّد في استعمال لفظة «الولوعي» في نعت هذه الروابط العائلية وإن كانت تلك التسمية قديمة مهجورة). وغني عن البيان أن نوع النشاط والمهام الموكولة الى الأسرة هو الوسيط

الجامع بين أفرادها. غير أن الألفة والوئام هما الحلية التي تتميّز بها الأسرة بالمعنى الصحيح. ومن العسير ان نتصوّر فريقًا جماعيًا آخر تكون فيه تلك الميزة على ذات القدر من القوة والأصالة. ولكن، لنقل على الفور، بأن ذلك هو مبعث القوة وموطن الضعف في آن بالنسبة الى الروابط التي تنشأ داخل الأسرة.

لنتخيّل الآن حالة من حالات العمل، ولنتصوّر عاملاً نرمز اليه بحرف (ع) يغفل، يوم الاثنين، عن أداء مهمة خطيرة، ثم يبدي، يوم الثلاثاء، خشونة وفظاظة في تعامله مع زملائه، ثم يُتبعها، يوم الأربعاء، بوقاحات تصدر عنه ازاء رئيسه، ثم يلحقها، يوم الخميس، بتغيّب عن عمله موهمًا الجميع بالباطل، ان امه كانت مريضة، ثم يعمد يوم الجمعة الى... لنتوقّف عند هذا الحدّ، إذ لا داعي للإكمال لأن الصورة قد غدت واضحة بيّنة. ولنتساءل، كما نفعل في عملية حسابية، لو ان عدد المرات التي حاد فيها هذا العامل عن المسلك القويم ارتفع حتى بلغ حد المُعامل «ن» فكم من الوقت يمكننا الاستمرار في تحمّله داخل المنشأة (وأقول الاستمرار في «تحمّله» لأنني لا أستطيع استعمال لفظة «محبته»). أخشى ألا يطول أمد تحمّلنا له. إذ بعد الاخفاق في محاولة تقويمه بشتى الوسائل الممكنة، لا بد للمؤسسة من التشطيب على اسمه، ولن ينفع بعدها انعدال مسلكه طيلة الأسابيع القادمة في تسوية مشكلته. ذلك أن كل خطأ مسلكي متماد يولّد نوعًا من التراكمات السلبية تتجلى فيما تخلفه من انطباعات سيئة عن المخطئ ومن تقويم سلبي لعمله، كما تشيع في محيطه شعورًا متزايدًا بالنفرة يتصدّع معه مركب الثقة فيغوص في اليمّ.

لنأخذ الآن مثلاً عن حالة من الحالات الأسرية، وأشير هنا، منذ البدء، الى انني لن أعمد الى تعداد ألوان الأخطاء المسلكية التي يمكن للولد ان يرتكبها في كل يوم من ايام الاسبوع. ومن الطبيعي ألاّ يبقى الآباء إزاءها مكتوفي الأيدي وغير مبالين بها، بل العكس هو الصحيح، إذ نستثير غضبهم أحيانًا بحدة وعنف بالغين. ومن المحتمل ان يستمر ذلك طوال أسابيع وشهور، لكننا نلاحظ – وهنا موطن الإثارة – ان ظاهرة التراكم لا وجود لها عند الآباء بل لكأن سيول الاستهجان التي تسرّبت من خلال الشروخ المحدثة في هيكل مركب الثقة قد امتصتها مضخّات الحنان الأبوي القوية، إذ يكفي احيانًا ان تصدر عن الولد حركة تعبّر عن محبته حتى يتناسى الآباء اخطاءه السابقة وإنّ كانت جسيمة.

في مؤلّفه المعروف «مغامرات توم سوير»*، يروي مارك توين فعلة توم القبيحة إذ اختبأ ورفاقه في جزيرة «جاكسون» حتى خيّل لأهله وأقربائه الملهوفين انهم قد غرقوا. ويذكر «توين» ان «بولين» عمة «توم» عندما عثرت على الكلمة الصغيرة الناعمة التي حفرها على قطعة من لحاء الشجرة – وهذا هو السبب التخفيفي الوحيد لحماقته – أخذت تبكي بكاءً مرًّا وهي تردّد: «الآن سامحته وغفرت له ما صنع ولو انه ارتكب مليون ذنب!».

نلاحظ اذن، أن «مليون ذنب» في كفة ميزان تقابلها بضع كلمات حنونة في الكفة الثانية وتستوي الكفتان؛ إنها حقًا لحالة نموذجية! كما نلاحظ ان الواقعة وإن قام بها أشخاص خياليون،

* Mark Twain, *Les aventures de Tom Sawyer*

وحصلت أواخر القرن الماضي في اميركا الشمالية لا في أسرة معاصرة ، فالمسألة تظل هي هي ؛ ذلك أن المعطيات النفسية الأساسية في شأن رأفة الآباء بابنائهم لم تتبدّل . ولكن مبعث التعقيد في المسألة يعود الى أن الآباء ليسوا بالأشخاص الوحيدين الذين يعنون بتقويم سلوك الأطفال بل هناك آخرون ، وهم كثر ، يراقبون و« يحاكمون » ؛ وعلى تقديرهم تتوقّف أمور كثيرة ، مع العلم أن تقديرهم هذا لن يستند الى معايير عاطفية بل يتركّز على تقويم الدور الذي يلعبه الطفل أكثر من التركيز على شخصيته .

إن أجدى المواقف التي يمكن الآباء ان يتخذوها للحكم على تصرّف أولادهم هو ان يهتدوا بالمعايير الاجتماعية المعتمدة التي يشهدون قيامها في علاقاتهم مع الغير خارج بيوتهم ، والتي ينبغي ان يعلّموا اولادهم مراعاتها . وليس من أحد يقول بأن على الأم ان تتخذ حيال ابنها او ابنتها ، وفي كل الأحوال ، ذات الوقفة التي يتخذها مدير المدرسة التي ينتسبان إليها ، أو يتخذها الجار حيالها . ولكن ، إنْ جاءت كل المواقف – مع الأخذ في الاعتبار للفوارق العاطفية – تستلهم مجموعة متناسقة من المعايير الأخلاقية المنبثقة عن المجتمع ، فانها تحقّق الوحدة في صفوف الأسرة والمجتمع على السواء ، وتنأى بشخصية الولد عن الانحراف ، وتتفادى ارتكاب اخطاء لا تقبل الارتداد في تنميته وتقدّمه . ويعلّمنا التاريخ أن المغالاة في التساهل أشبه بدين معقود نؤديه بعد حين . إن المفهوم التربوي السوفياتي للأسرة ينطلق من المبدأ القائل بأن إغراق الآباء في التساهل حيال الأولاد تقع مغبته على المجتمع فيدفع ثمنه بعد حين ، كما يدفعه الأولاد أنفسهم ، إن عاجلاً أم آجلاً . ولا يستبعد أن تأتي حصيلة جمع الثمنين باهظة ، فادحة .

التعليم والتنشئة واعداد المربين

إن أساليب التربية داخل الأسرة السوفياتية ، وفي طليعتها تلك التي تستجيب بشكل أفضل للرغبة في تحويل الأسرة الى فريق جماعي ودّي ، إنما تنشأ ، بالطبع ، بصورة عفوية نوعًا ما وتتحدّر من وضع التطور الاجتماعي العام . بيد أن علينا ألاّ نغالي في إضفاء صفة العفوية على هذه السيرورة . ذلك أن المجتمع الاشتراكي يولي إنجاح التربية الأسرية اهتمامه الصريح فيُعنى بتنظيمها على أساس القيم والمبادئ الأخلاقية ، كما يُعنى بتزويد الآباء بالقواعد والأصول والأساليب اللازمة لتربية الأولاد .

وتلعب المدرسة في هذا الصدد ، وبالتعاون الوثيق مع الآباء ، دورًا رئيسًا (فهناك اجتماعات منتظمة تُعقد بين آباء الطلبة والمدرسين ، وهناك ألوان من النشاط تقوم بها رابطات آباء الطلبة في المدرسة ، وهناك زيارات تفقدية للطلاب يقوم بها المدرّسون في المنزل ويتبادلون مع الآباء أحاديث خاصة وهم يحتسون فنجانًا من الشاي الخ ...) . وهناك دور بالغ الأهمية في هذا المجال تقوم به الجامعات المسماة « بجامعات الآباء » التي تشرف جمعية « المعرفة » على تنظيمها ، ويؤمّها مئات الآلاف من الآباء والأمهات والجدود والجدات ، يحظون فيها بدروس يعطيها أساتذة تربويون وعلماء

نفس ورجال قانون وأطباء يتحلّون بكفاءات عالية ، كما يشاركون في المناقشات ويتلّقون المنشورات الضرورية . وفضلاً عن ذلك ، فهناك سيل من المنشورات العلمية حول الأسرة تمّ تعميمها لجعلها في متناول الجميع . ونشير هنا إلى ان سلسلة منشورات « الكلية التربوية » التي تتولى إصدارها دار « المعرفة » تتألف كل عام من اثنتي عشرة منشورة (يسحب من كل منها نصف مليون نسخة) ، تلتهمها الأسر بشغف بالغ ، علمًا بأن تلك السلسلة قد بدأت بالصدور منذ عشرين عامًا . فلو أجرينا عملية حسابية بسيطة في هذا الشأن لخرجنا بالحصيلة التالية : ٢٤٠ منشورة أي ١٢٠٠ ورقة مطبوعة . ثم ان هناك دورًا أخرى للنشر تقوم أيضًا بإصدار مؤلفات علمية معممة تدور حول الأسرة ؛ ونذكر مثلاً مجلة « الأسرة والمدرسة » ، وهي مجلة شعبية رائجة يبلغ عدد نسخ كل منها المليوني نسخة . وفضلاً عن ذلك فان هناك برامج اذاعية وتلفزيونية خاصة بالآباء أخذت تُبثّ منذ بضع سنين . ولئن كان من الصحيح ان التربية الأسرية في الاتحاد السوفياتي لا تقوم ، بالفعل ، على قواعد مؤسسية ، إلاّ انها تتميّز بجلاء عما ندعوه بالتربية « التابعة » . ■